فكر النهضة بين الإحياء والتنوير

محمد حسين هيكل مثالا

علي حرب*

١ - قراءة نقدية

يعد محمد حسين هيكل من أعلام الفكر والأدب والسياسة الذين تركوا بصماتهم على الحياة المصرية في النصف الأول من القرن العشرين، شأنه في ذلك شأن لطفي السيد وطه حسين وعلي عبد الرزاق ومنصور فهمي، وغيرهم من الأعلام الذين تابعوا مسيرة النهضة التي أشرقت بأنوارها في مصر والعالم العربي مع الأفغاني ومحمد عبده وقاسم أمين وشبلي الشميل وسواهم من دعاة النهوض والإصلاح أو التحرر والتقدم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فما هي الفسحة التنويرية التي ساهم في تشكيلها؟ ما علاقته بعصر التنوير وأعلامه؟ وما كانت صلته بأعلام النهضة والاستنارة من الذين سبقوه في مصر وبلاد العرب؟ وكيف تعامل مع مفهوم التنوير ومفرداته؟ بل كيف مارس التنوير هو نفسه؟ تلك هي الأسئلة التي أحاول الإجابة عنها في هذه القراءة النقدية لعلم من أعلام النهضة الفكرية العربية.

وأبدأ بعلاقتي أنا بالذات بفكرة التنوير، قائلا إن الكلام على استنارة هيكل، يتعدى عندي الطابع الاحتفالي والتبجيلي. فنحن لا نعود إلى هيكل لمجرد أن نقول إنه كان من أهل التنوير، أو لكي نعرف فقط الجوانب المضيئة والوجوه المشرقة في فكره وحياته، لأننا إذ نفعل ذلك لا نحسن سوى التماهي معه والعمل على تقليده، في حين أن التنوير هو خروج على التقليد، وممارسة للاختلاف الخلاق، والمغايرة الخصبة والمنتجة.

(*) كاتب ومفكر لبناني.

ولذا فنحن إذ نسترجع الآن هيكل، فلكي نمارس فاعليتنا التنويرية، بنقد أعماله وتقييمها، للكشف عن خفايا تجربته وحجب خطابه. بل من المتعذر علينا أن نتماهى معه، بقدر ما يتعذر علينا الانقطاع عنه واستبعاده. فالممكن أن نقرأه قراءة مثيرة وفعالة، كاشفة وتنويرية، تكون بمثابة نور على نور. على هذا النحو يمكن التعامل مع التجارب الفكرية والمشاريع التنويرية: رؤية مالم يره أهل التنوير، وبصورة تتيح لنا إعادة ترتيب العلاقة بين المرئي واللامرئي، بين المعقول واللامعقول، بين المفهوم والعماء.

٢- المرجعيات التنويرية

المستنير لا يبدأ دوما من أنوار عقله أو من نور فطرته، وإنما يستفيد من تجارب الآخرين ويستضيء بعقولهم . وهناك تجربتان تاريخيتان بالنسبة للمثقف العربي والمسلم، يمكنه استعادتهما والاستضاءة بهما. الأولى تراثية وهي تجربة التنوير الإسلامي المتمثلة في النتاج الصوفي والعرفاني. والثانية هي تجربة التنوير الغربي كما تمثلت عند فلاسفة عصر الأنوار ومفكريه كفولتير وروسو وكنط وكوندورسيه...

ولا جدال في أن التنوير الإسلامي يشكل تجربة أصيلة وغنية، مورس فيها الوجود انفتاحا وإشراقا، أو فيضا وازدهارا، خصوصا لدى الإشراقيين، وبشكل أخص لدى السهروردي الذي تحولت معه الفلسفة من علم للوجود إلى علم للنور. ذلك أن «النور» هو مصدر الوجود وماهيته ومآله لدى أهل الإشراق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بهذا المعنى فإن الفلسفة الإشراقية تستوحي التجربة النبوية وتقرأ في آية النور القرآنية. ومع ذلك فإن السهروردي كان شهيد ممارسته التنويرية. إذ إن التنوير بقدر ما هو تحرر الفرد واستقلالية الذات والاستخدام النقدي للعقل، فهو يهدد السلطات على اختلاف أنواعها، سواء أكانت سياسية أم دينية، علمانية أم أصولية. وهكذا قُتل السهروردي بسيف السلطان وبعقل زملائه وأنداده من الفقهاء وعلماء الكلام. إنه الصراع بين الفكر النقدي من جهة، والفكر المغلق والأحادي من جهة أخرى، سواء أكان لاهوتيا أم علمانيا.

وقضية أبو زيد الماثلة في عقولنا، هي مثال صارخ يشكل «صدمة» لنا على حد قول جابر عصفور، قصدت أن استخدام المرء لعقله، بصورة حرة ونقدية، في التعامل مع هويته وتراثه وكتبه، وأن محاولات تشريع الأبواب أمام الفكر للدخول إلى المناطق المعتمة من الحياة والوجود، تلقى الرفض من قبل أهل الحد والحظر والتحريم، مع أن الحق محدود بكل حد كما قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي.

غير أن هيكل لا يرجع إلى تجربة التنوير في التراث الإسلامي، لأنه كان يعتبر هذه التجربة من الماضي، ولأن الفكر الصوفي كما استقرت قراءاته، ارتبط بمفاهيم العزلة والتواكل

والانقطاع عن العالم. بل إن هيكل عندما يتحدث عن أوضاع الفكر في مصر يميز بين عقليتين تصطرعان في الأذهان: «العقلية العربية» التي تجسد عنده «حكم العاطفة وسلطان الماضي»، مقابل «العقلية الغربية» التي تجسد «الفكر الحر» وانتشار النظريات العلمية. من هنا كانت مرجعيته في التنوير، عصر النهضة العربي أول الأمر، ثم عصر التنوير الغربي بشكل خاص، وهو العصر الذي لا ينفك هيكل عن استحضاره واستلهامه.

٣ - هيكل وعصر النهضة العربي

كان أول اتصال لهيكل بعقل التنوير هو مع أهل النهضة، خصوصا مع فكر محمد عبده وقاسم أمين، فضلا عن أستاذه وزميله فيما بعد أحمد لطفي السيد. فمع عبده والأفغاني انبثقت أولى محاولات التنوير التي تجسدت، على ما يقرأ ويقول هيكل، في الدعوة إلى «التفكير الحر» من أجل «فك القيد عن العقل» ، و «فتح باب الاجتهاد» في المسائل الدينية والشرعية، وممارسة الاعتقاد بالله من خلال «الإيمان المستنير». ثم جرت مع قاسم أمين محاولة تنويرية أخرى، كان هدفها تحرير النساء، أي نصف المجتمع الذي كان يحرم من «نور الحياة» ومن «نور العلم»، وذلك بالدعوة إلى تعليم المرأة والسماح لها بممارسة السفور، أي برفع الحجاب عن الفكر والوجه معا، وما التنوير سوى كشف المحجوب. بل إن هيكل نفسه، على ما يروي في سيرته، كان أول انخراط له في عالم الكتابة والصحافة، من خلال مقالته حول «تحرير المرأة» التي كتبها في صحيفة «الجريدة»، فكانت تلك المقالة ممارسة تنويرية مضاعفة: الدعوة إلى تحرير المرأة من جهة، وممارسة الكتابة من جهة أخرى.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والكتابة هي في حد ذاتها فعل تحرر وممارسة المرء لذاته ممارسة إبداعية. والذي لا يكتب كتابه، فيكون موضوعا للكتابة ومحلا للسيطرة لامحالة. من هنا فنحن نستنير بالغير بقدر ما ندخل في استيلائه ونقع تحت تأثيره من حيث لا نكتشف. بكلام آخر: لكل تجربة تنويرية وجه لا عقلاني أو استبدادي أو ظلامي، هو وجهها الآخر، وربما بداهتها المحتجبة التي تتأسس عليها، كما يبين ذلك بعض نقاد الفكر الغربي في كشفهم لما انطوت عليه تجربة «الأنوار» من آليات الحجب والكبت والتهميش والإقصاء.

٤ - هيكل في مدينة النور

غير أن التجربة التي كان لها أكبر الأثر في حياة هيكل وفي فكره، هي اتصاله بالحضارة الغربية واطلاعه على منجزات الفكر الأوروبي. وقد حصل ذلك أول الأمر بصورة غير مباشرة عن طريق أحمد لطفي السيد الذي فتح أمام هيكل آفاقا جديدة، انتقل معها من قراءة الأدب العربي إلى قراءة مؤلفات أجنبية تتحدث عن الثورة الفرنسية و «مبادئ الحرية»، عند كارليل وهربرت سبنسر وستيوارت ميل.

ومعلوم أن الغرب كان يومئذ يمثل الحرية والاستنارة والعدالة والمساواة بالنسبة إلى المثقفين العرب والمسلمين. طبعا ليس المقصود بهم أهل التقليد والذين أصروا على البقاء في قوقعتهم العقائدية أو الذين تمترسوا وراء خصوصيتهم الثقافية، بل المقصود بهم الذين كانت لهم عيون وبصائر ترى وتشهد ما يحدث في العالم، وهم رواد النهضة الذين صدمهم التفوق الغربي وأيقظهم من سباتهم التاريخي، مما جعلهم يطرحون على أنفسهم السؤال الكبير: لماذا تقدم الغربيون وتأخر المسلمون؟ وهيكل ينتمي إلى هذه «الطبقة المستنيرة» التي أظهرت أقصى الافتتاح على العالم الغربي، إذ رأت فيه المثال الذي يجسد القيم المتصلة بالحرية والعقل والعدالة والرقي الاجتماعي والتطور الحضاري.

لكن الاحتكاك غير المباشر لم يكن يشفي الغليل، بل كان يغذي مخيلة هيكل ويبتعث فيه الشوق إلى أن يشاهد بأم العين ما كان يسمع عنه أو يقرؤه في الصحف وفي الكتب. فكان مثله في ذلك كمن يتحدث إلى محبوبته من وراء حجاب، لا يزيده الحديث إلا شوقا لهتك الأستار ورؤية المحبوب. وهذا الكشف قد تحقق فعلا بعد وصول هيكل إلى باريس في رحلته العلمية لنيل شهادة الدكتوراه في الحقوق. ففي عاصمة فرنسا وجد نفسه في «مدينة النور» التي سمع بها، ورأى بعينيه «الحرية مجسمة» في حياة الفرد والوطن، في تفكير الناس وفي تصرفاتهم اليومية، في ممارستهم لهوياتهم العقائدية ولعلاقاتهم المجتمعية، على ما يروي ذلك في مذكراته، وبالتحديد في الفقرة التي يصف فيها مشاهداته، ويعبر عن انطباعاته بعد أن وصل إلى باريس وأقام فيها، وهي فقرة حافلة بمفردات التنوير ومشتقاته. والحق أن خطاب هيكل هو خطاب تنويري من حيث مصطلحه. فحيثما نقرؤه، متحدثا عن الحقيقة والحق وحرية الفكر أو الرأي الحر، تطالعنا مفردات النور والضياء والسناء والرواء والانبلاج والانبهار.. هذا ما نلمسه في مذكراته كما نلمسه في مقدمته لكتابه، حياة محمد، وفي سائر كتبه. وهكذا فإن هيكل اعتبر أن إقامته في باريس، خلال السنوات الثلاث التي استغرقها إنجازه لرسالة الدكتوراه، بمثابة مناخ تنويري أتاح له أن يستمتع بحريته الشخصية ، وأن يمارس هويته الفكرية والاعتقادية بلا تعصب ومن غير قيود. ولا شك أنه في باريس أتيح له الاطلاع بصورة واسعة وعميقة ومباشرة على فلاسفة الثورة والحرية، خصوصا جان جاك روسو الذي استحوذ على إعجاب هيكل، مما جعله يقوم بترجمة حياته وأعماله، بعد رجوعه إلى مصر.

لكن الأمور لم تكن كلها أنوارا وبهاء إلا في البداية، حيث الضوء الباهر يحجب بقدر ما يكشف. وبعد زوال الانبهار بالشيء يرى المرء ما لم يكن يراه.

وهذا شأن هيكل مع مدينة النور. ثمة أمور كانت تحدث تفاجئه بانتهاكها لمبادئ الحرية من قبل دولة شعارها «تقديس الحرية». من ذلك قرار الحكومة الفرنسية في ذلك الحين، مجاملة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منها لبريطانيا، بمنع المصريين المقيمين في باريس من عقد مؤتمر سياسي يعبرون فيه بحرية عن موقفهم تجاه الأحداث التي تجري على أرض وطنهم.

ومع ذلك فإن هذه الشوائب لم تكن تدعو هيكل إلى النقد أو إلى تغيير موقفه.

كان يعجب مما يعتبره انتهاكاً ولا يجد له تفسيراً، مع أن فرنسا كانت قد احتلت الجزائر بالقوة في مطلع الثلاثينات من القرن التاسع عشر. بيد أن هيكل وأمثاله من أهل الاستنارة وعشاق الحرية، قد غفلوا عن هذا الأمر، وهو أن لفرنسا الثورة والحرية والاستنارة وجهها الاستعماري والاستبدادي، الذي لا يُنسيني بدوري أن للاستعمار الغربي وجهه الإيجابي العمراني والحضاري. وكأن هيكل بنسيانه وغفلته لم يشأ أن يفسد متعته التنويرية، أثناء إقامته في باريس، بالمساءلة والاعتراض والنقد. مع أن عصر التنوير في أصله وحقيقته هو عصر النقد.

والواقع أن تعامل هيكل مع مصطلح التنوير بقي تعاملاً خارجياً. فهو لم يطلع على المفهوم في مصادره، على الرغم من أن كلمة النور من أكثر المفردات تداولاً في مؤلفاته. من هنا كانت علاقته بمفهوم التنوير تقوم على التبسيط والتبجيل، بوصفه ممارسة للتفكير الحر وامتداحاً له، على ما هو شأن معظم أهل الاستنارة الذين بهرهم الغرب بأنواره المادية والفكرية.

طبعاً هناك من انتقد الحضارة الغربية ومنجزاتها، على ما فعل الأفغاني وبعض رواد عصر النهضة. ولكن هذا النقد كان يحركة الدفاع عن الهوية والعقيدة، أكثر مما كان محاولة للكشف عما تنطوي عليه التجارب التنويرية من الآليات اللامعقولة أو الممارسات المعتمة. إذن كان نقداً ايديولوجياً أملاه منطق الصراع مع الغرب، ولم يكن نقداً انطولوجيا يطال العقل ذاته، من حيث صلته بالوجود والحقيقة، كما يجري النقد في الممارسة التنويرية، سواء في أنماطها القديمة أو الحديثة.

٥- النقد التنويري

من المعلوم أن التنوير العقلي قد أشرق مع استخدام الفكر النقدي. والنقد لا يعني مجرد ممارسة المرء لحريته الشخصية بلا قيد ومن غير الخضوع لأية سلطة، بقدر ما يعني عودة المرء إلى عقله لمراجعة ثواب الفكر وتعرية بداهاته، أو الكشف عن أبنيته وقواعد اشتغاله. إنه تفكيك لقوالب العقل الدغمائي وآليات التفكير الأحادي ومنطق الفهم التبسيطي.

بهذا المعنى ، ليس النقد مجرد خرق للممنوعات أو مجرد مقاومة للسلطات، بقدر ماهو اقتحام للمناطق العصية على التفكير، أو استكشاف أراض جديدة لعمل العقل، بصورة تتغير معها أدوات الفهم أو الممارسات الفكرية، وبقدر ما تنفتح علاقات جديدة مع الحقيقة، أي بقدر ما تنعقد صلات مغايرة بين الأفكار والوقائع، أو بين الكلمات والأشياء.

وهكذا يجدر التفريق في النقد بين الممنوع والممتنع. فخرق الممنوع يحتاج إلى الجرأة المعرفية، بقول ما لا يجوز قوله. وأما تذليل الممتنع، فإنه اشتغال على الذات والفكر أو على النص والواقع، من أجل امتلاك إمكانيات جديدة للقول والتفكير، كمن يقرأ نصا من النصوص، لكي يكشف عن آلياته في إنتاج المعنى أو عن إجراءاته في إقرار الحقيقة أو عن ألاعيبه في إخفاء سلطته، فيجدد بذلك معرفتنا به بقدر ما يغير مفاهيمنا للنص والمعنى، للمعرفة والحقيقة. وبالإجمال فإن النقد بالمعنى التنويري، ليس هو مجرد مواجهة السلطة بقول الحقيقة، بقدر ما هو يقظة من السبات أو مغادرة لحال العجز والهامشية، على النحو الذي يتيح للمرء أن يتغير عما هو عليه، فكرا ومؤسسة، معرفة وسلطة، خطابا وممارسة. باختصار: النقد بهذا المعنى هو امتلاك إمكانيات جديدة للحياة والوجود، سواء على مستوى القول والتفكير، أو على مستوى العمل والتدبير.

لا أريد أن أظلم هيكل ولا الأفغاني أو محمد عبده. فإن أكثر المثقفين العرب المعاصرين لم يأخذوا التنوير من مصادره الأصلية. والدليل على ذلك أنهم يعترضون على أحدنا عندما يمارس نقده للحداثة والعقلانية وعصر التنوير ، بحجة أننا لم ننجز حداثتنا بعد، ولم نكتسب عقلنا التنويري ، غافلين أو جاهلين بأن الفاعلية التنويرية والحداثة الفكرية والعقلانية الفلسفية هي نقد متواصل ، كما تشهد على ذلك العلاقة بين أرباب الفكر من لدن ديكارت حتى المعاصرين. وهي ليست علاقة فرع بأصل، بقدر ما هي « علاقة نقدية» يعود بها العقل على تاريخه للكشف عما تستبطنه أنظمته المعرفية من المسبقات الواهية أو الثنائيات الخادعة أو الأساطير المؤسسة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهذا شأن المفكر: إنه يشتغل على أفكاره، أي على مقولاته الضيقة أو على أساليبه القاصرة أو على أجهزته المعيقة ، محاولا تجديد عدته الفكرية، أو تغيير طريقته في التفكير، أو افتتاح مناطق جديدة لعمل الفكر. ولذا، فمشكلة المفكر هي مع أفكاره بالدرجة الأولى. وهذا ما تشهد به تجارب المفكرين المنتجين للأفكار الجديدة، الخلاقة والخارقة. بهذا المعنى فنحن نمارس فاعليتنا التنويرية، ليس فقط بالتحرر من السلطات السياسية والدينية، بل بالتحرر من سلطة أفكارنا بالذات، وذلك بتفكيك الأوهام التي تستوطن عقولنا، وعلى النحو الذي يتيح لنا الخروج من سجوننا العقائدية ومعسكراتنا الأيديولوجية.

وأنا أريد أن أهوّن الأمر علينا نحن المثقفين العرب. فهذا فيلسوف معاصر، هو يورغن هابرماس، يرفض التعامل مع عصر التنوير، بصورة نقدية، معتبرا أن أسس المشروع التنويري ما زالت صالحة، وأن الخلل واقع فقط في آليات الاستخدام ووسائل التطبيق، تماما كما يتعامل الإسلاميون مع عقائدهم والماركسيون مع أيديولوجياتهم.

والذين يحتجون على نقد مشاريع التنوير، لا يريدون لنا أن نفهم ما يجري: لماذا ينتكس العقل في غير مكان؟ ولماذا يعود العقل التنويري على مكتسباته؟ ومن يفعل ذلك، أي من يرفض نقد العقل التنويري، يتعامى عما تبديه العقلانية الكلاسيكية، الحديثة، من العجز عن قراءة العالم وتشخيص الواقع، بقدر ما يتعاملون مع مفردات التنوير وأعلامه بصورة سحرية، أي بصورة غير تنويرية.

وهذا هو مأزق أهل الاستنارة في العالم العربي على وجه الخصوص: لقد تعاطوا مع عصر التنوير الغربي، بوصفه نموذجا ينبغي اللحاق به والتماهي معه، فكانت المحصلة لهذا المسلك الفكري تراجع الأنوار، وطغيان اللامعقول، واجتياح الأصوليات لساحة الفكر العربي. ولا عجب فمن ينطلق من فكرة مسبقة يريد التقدم على أساسها لا يحسن سوى التراجع عنها.

وبالإجمال ثمة مأزق تنويري يتجلى في انفجار العقلانية الحديثة، في غير نشاط إنساني وفي أكثر من فرع معرفي. ولا فكاك من هذا المأزق، إلا بتفكيك مقولة التنوير العقلي، لإعادة ترتيب العلاقة بين العقل ولا معقولاته. فليس العقل مجرد نور طبيعي يشع من ذاته كما يقول أهل الفلسفة، ولا هو مفاهيم محضة كما يقول فيلسوف الأنوار كنط، ولا هو بالطبع محلا لنور يقذفه الله في الصدر كما يقول أهل اللاهوت. فقوة المفهوم هي في كثافته. والعقل هو علاقته بلا معقولاته التي هي غرفه المقفلة وحياته الباطنة، أي مادته التي يتغذى منها ويشتغل عليها، لتصيير اللامعقول معقولا، وجعل ما يستعصي على الفهم مفهوما.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٦- هيكل والممارسة التنويرية

لا شك أن التنوير لا يتعلق بالخطاب وحده. هناك المواقف والممارسات. وقد حاول هيكل أن يكون في علاقاته مع زملائه وخصومه وفيا للمبدأ التنويري الفولتيري: الحق المقدس في أن يدافع كل واحد عن موقفه ورأيه. وكان هيكل بعد تسلمه وزارة المعارف يشكو من أنه لا يجد بين مرؤوسيه موظفا واحدا يعترض عليه بالقول: «لا»، على ما يروي طه حسين. وهذا ما حاول ممارسته في مزاولته لمهنته الصحافية، عندما كان رئيسا للتحرير في إحدى كبريات الصحف، حيث كانت تتحول معه المداولات في جلسات العمل وإدارة المناقشات حول القضايا الساخنة إلى مناخ للجدل العقلي المستنير. وكانت له في هذا الخصوص مواقف مشهودة، أخصها بالذكر وقوفه إلى جانب صديقه علي عبدالرازق في محنته، بعد أن تخلى عنه معظم أصدقائه. فلم يكن هيكل، وهو الذي تربى على عشق الحرية وتقديسها، ليقبل بأن يحاكم عالم أو يطرد من زمرة العلماء لرأي رآه أو لاجتهاد اجتهد به، بدلا من أن يقارع الرأي حجة بحجة ومنطقا بمنطق. ولست أدري لو ابتعث هيكل حيا الآن، ما الذي كان يمكن أن يقوله في مبدأ الحسبة على مايمارس في هذه الأيام؟

هناك قضية أخرى استلفتت نظري عند هيكل، كما لاحظها الكثيرون، واعترف بها هو نفسه، عنيت بذلك عدم ثقته بالجماهير. ولذا، كان يقف دوما حيث لا يقف الجمهور من الناس. وهذا عندي سلوك تنويري بعكس ما يظن الأكثرون. فالجمهور، ولو تألف من جمع من الفلاسفة والعلماء، يشكل قطيعا بشريا تتحكم فيه العاطفة ويسيطر عليه التعصب والانغلاق. وحده الفرد يمكن أن يمارس علاقته بعقله بصورة تنويرية.

وعلى كل حال إن تجربة المثقفين العرب مع الجماهير التي رفعت شعار توعيتها والدفاع عن مصالحها، كانت محبطة وفاشلة. فالجماهير لا تثق بهم، بل تنقلب عليهم، ويجري تجييشها ضدهم. من هنا فإن مقولة توعية الجماهير من أكثر المقولات تعمية وتضليلا. بكلام أكثر صراحة إن الفرد يتنور بقدر ما يتحرر من عقلية الجمهور وطغيان العقل الجمعي.

وبقدر ما توهم المثقفون حول ماهية الجمهور، وقعوا في الوهم حول تصورهم لأدوارهم ومكانتهم في المجتمع. لقد تعاملوا مع أنفسهم بوصفهم النخبة المستنيرة والطليعة المتقدمة. وهذا الوهم المتأصل عند أهل الفكر، لم ينج منه هيكل نفسه، بل مارسه بامتياز وبنخبوية متعالية تجسد منتهى النرجسية التي تجعل الكاتب يرى نفسه ليس كبقية الناس، بل بوصفه ضمير الإنسانية أو «فلذة كبدها» كما عبر هيكل في تقييمه لمنزلة الكاتب. هذه النرجسية هي التي جعلت هيكل يرى مهنة الكتابة بوصفها مهمة رسولية، في حين تعامل مع السياسة، التي خاض في معتركها، بوصفها مصدر الشر ومصنع الظلم والفساد. مع أن السياسة، هي كالكتابة، مهنة لها مزاياها وفضائلها، كما لها سلبياتها ومساوئها. ولكن النخب المثقفة تغرق في أوهامها وتستبد بها نرجسيتها. ومآل ذلك: جهل المثقفين بأن مجتمعهم الصغير يشكل جمهورا لا يعقل، وعزلتهم عن الناس الذين يريدون تحريرهم أو تنويرهم، فضلا عن ممارساتهم الاستبدادية داخل قطاعهم الخاص، حيث تسود علاقات الاستبعاد المتبادل وأشكال النفي الرمزي.

أخلص من قراءة تجربة هيكل التنويرية إلى خلاصات ثلاث:

١ـ لا عقل يكتسب بصورة نهائية. فنحن اليوم أقل تنويرية مما كنا أيام هيكل.

ولا عجب فليس العقل جوهرا محضا ينبغي تخليصه من شوائب اللامعقول، بل إن اللاعقل يلابس العقل ولا ينفك عنه بوصفه قاعه السفلي وغوره السحيق وجانبه المظلم. وحده ذلك يفسر لنا كل هذه التصرفات اللا مسؤولة والمجنونة، سواء في تعامل الإنسان مع نفسه أو مع البيئة والطبيعة، كما يفسر لنا ما تحصده البشرية من العنف والخراب والتبديد، بعد مضي قرنين على عصر التنوير والتقدم في الغرب، وبعد مضي قرن على بداية عصر النهوض والإصلاح في العالم العربي.

بهذا المعنى ليس التنوير مجرد تحرير للعقل من براثن اللاهوت وسلطات الغيب ، بقدر ما هو كشف لما يستبطنه العقل البشري عموما، من أساليب دغمائية أو تعاملات لاهوتية أو ألاعيب سحرية. والذين يظنون أن بإمكانهم التحرر بالكلية من رواسب اللامعقول، يمارسون علاقتهم مع العقل بصورة غير معقولة، ويعيدون إنتاج العلاقات اللاهوتية بشكلها الأسوأ والأخطر. ولا غرابة في القول. فنحن بقدر ما نهوى العقل، نمارس علاقتنا معه بصورة غير معقولة. وتلك هي المفارقة التي ينطوي عليها خطاب العقل.

٢ـ لسنا عقلاء أو عقلانيين بقدر ما ندّعي أو نعقل، بل نحن على قدر من الوهم والحمق والجنون، ما يجعلنا نعود دوما إلى عقلنا وعليه، لإعادة التفكير فيه والكتابةعنه. بهذا المعنى ليس العقل طبيعة فُطرنا عليها أو غريزة ركّبت فينا، بقدر ما هو رابطة نتقيد بها، أو صناعة نتقنها، أو تركيب نصطنعه، أو معيار نخضع له. إذن نحن مكرهون على أن نكون عقلاء أو عقلانيين. من هنا فالأوهام والأهواء هي الأشهى والأجمل والأمتع. وجل ما نطمح إليه هو إيجاد تسوية بين عقلنا ولا معقولاتنا. لنعترف حقا بأننا أقل معقولية مما نحسب. بذلك نمارس فاعليتنا التنويرية، كاشتغال دائم على أقاليمنا اللامعقولة وممارستنا المعتمة، وذلك بخلق المفاهيم الكاشفة لمناطق الفوضي والعماء، أو بصوغ التراكيب الفكرية التي تضفي قدرا من العقلنة على مؤسساتنا وسلطاتنا وقراراتنا، أو على خطاباتنا ومعارفنا وممارساتنا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ـ ليست تجارب السابقين لنا، من تنويريين عرب أو غربيين، نماذج كاملة أو صيغا جاهزة نعمل على احتذائها أو تطبيقها، بقدر ما هي أفكار ينبغي صرفها وتحويلها في أتون التجربة. فالفكرة لاتنطبق على الواقع، بقدر ما هي علاقتنا به.

ولذا فالواقع يتغير ويعاد تشكيله، بقدر ما يجري العمل على الأفكار ويعاد إنتاجها على أرض الممارسة.

بهذا المعنى يمكن القول إن ما تقدم وما تأخر من المشاريع التنويرية، قديما أو حديثا، ليس بالنسبة إلينا هويات أو عصورا لكي نتماهى معها أو نلحق بها، وإنما هي تجارب كثيفة نرى عتماتها، أو تقاليد فكرية راسخة نحاول الخروج عليها، أو أنظمة معرفية نعمل على تفكيكها وإعادة تركيبها، أو نصوصا نشتغل عليها للكشف عن محجوباتها. باختصار إنها معطيات نعمل على صرفها واستثمارها، بصورة تتيح لنا أن نخرج في ممارستنا لوجودنا مخرجا أكثر معرفة وثراء وقوة، سواء من حيث علاقتنا بذواتنا أو بالغير والعالم.

1- محمد حسين هيكل، مذكرات في السياسة المصرية، الجزء الأول، دار المعارف بمصر.
2- محمد حسين هيكل، حياة محمد، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨.
3- محمد حسين هيكل، إشراف وإعداد لطفي السيد، مطبعة مصر، ١٩٥٨.
4- ميشال فوكو، ماهي الأنوار (بالفرنسية) المجلة الأدبية (Magasine Littéraire)، العدد ٣٠٩، نيسان ١٩٩٣.
5- صادق جلال العظم، ذهنية التحريم، رياض الريس للكتب والنشر، لندن ـ قبرص، ١٩٩٢.
6- علي حرب، الاستلاب والارتداد، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ١٩٩٧.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com